تكون لوناً من الدعوة الحرة أو الموعظة الحسنة ، ترتج لها أعواد المنابر ، أو تفيض بها أشتات النشرات ، دون أن تبلغ من العزائم والهمم مبلغ التنفيذ ، أو تنزل من القلوب منزلة الإقناع ، وقصارى ما تظفر به فى دنيا الناس محض الاستماع والاطلاع ! ...

والإنسان فى سيره إلى الكمال ، وطلبه المثل الأعلى ، لا يفتأ يهفو إلى الفكرة الجديدة عصراً بعد عصر ، فلكل عصر فكرته ، تحيا فيه موفورة الإكبار والتقدير ، حتى تتأصل جذورها فى المجتمع ، وتكاد الأمة يوليها شرف التقديس ، ولكن الفكرة تجمد على الزمن ، وركب الحياة سيار ، والدنيا بأهلها تتجدد ، وإذن يستبين للأمة أن هذه الفكرة قد أدركتها الشيخوخة ، ونال منها الإعياء ، ولم تعد فيها بقية تلاحق بها الوعى الحاضر ، فتعلن الأمة عليها ، فقمتها فى رفق أو عنف ، وتستبدل بها فكرة جديدة تلائم العهد الجديد . وهكذا دواليك ، حتى يقوم الناس لرب الناس ! ...

فكرة الأمس التى هرمت اليوم وأعيت ، كانت لها قيمتها حين نجمت ، وإن عجزها اليوم عن مطاوعة العصر الراهن ليس دليلا على أنها فكرة تافهة ، فقد أدت فى ماضيها وظيفة اقتضتها الأحوال والملابسات ، واستلان لها قياد النفـــوس ، ولو لم تكن موائمة للزمن السالف لما عاشت فيه . ولو لم تكن مسايرة لشعور الجماعة